النفحة الثالثة والعشرون: رَمَضَانُ شهر الخير والإحسان

رَمَضَانُ مضمار واسع يتسابق فيه الصالحون، ويتنافس فيه المتنافسون لفعل الخيرات والاستزادة من المبرات، وكيف لا يتسابقون وفيه يضاعف الثواب، ويزداد الأجر والعطاء، وهو سيد الشهور وأبركها وأشرفها، وكل عمل صالح يؤدى فيه يكتسب ظلاً ظليلاً من خيره وبره...

ألا وإن من أفضل خصال البر والعمل الصالح في رَمَضَانَ، الإنفاق في سبيل الله سبحانه تعالى، والتصدق على الفقراء واليتامى والأرامل والمنكوبين والمشردين، فقد جاء في الحديث الذي يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: سُئل النبي ﷺ أيُّ الصوم أفضل بعد رمضان؟ فقال: «**شعبان لتعظيم رَمَضَانَ**»، قيل: فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «**صدقة في رَمَضَانَ**»[1].

ولذلك كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، كما ورد في الصحاح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رَمَضَانَ حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رَمَضَانَ فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة)[2].

والصدقة في رَمَضَانَ على الفقراء والمساكين، وخاصة على الذين لا يجدون ما يفطرون عليه من كسارة خبزٍ أو دقل التمر أو غيره، بسبب الحروب التي شردتهم في أقاصي الأرض، والتآمر والمتآمرين الذين خذلوهم، فهؤلاء حين تدفع إليهم الصدقة، فإنك تنال مثل أجرهم، قال رسول الله ﷺ: «**مَن فطّر فيه صائماً، كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره**

(1) رواه الترمذي، 3/ 51، رقم: (623)، والبيهقي، 4/ 305، رقم: (8300).

(2) رواه البخاري، 3/ 1177، رقم: (3048)، ومسلم، 4/ 1803، رقم: (2308).

شيء»، قالوا: ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم، فقال: «**يعطي الله هذا الثواب لمن فطر صائماً على تمرة أو شربة ماء أو مذقة لبن**»(1).

والنبي ﷺ بشَّر الذين يطعمون الطعام بغرف في الجنة لكن من طراز فريد، عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام**»(2).

فالمؤمن عندما يكون صائماً متصدقاً، يكون قد جمع من خصال الخير والبر ما يدخله الجنة، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَن أصبح منكم اليوم صائماً**»؟ قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمَن تبع منكم اليوم جنازة**»؟ قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً**»؟ قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن عاد منكم اليوم مريضاً**»؟ قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمعن في امرئ إلّا دخل الجنة**»(3).

وكم وكم أثنى ربنا تبارك وتعالى على الذين يتصدَّقون على الفقراء والمساكين ويطعمونهم قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: 8 ـ 13].

وفي مسند أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «**أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة على ظمأ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على**

(1) رواه ابن خزيمة في صحيحه، 3/ 191، رقم: (1887)، ورواه الهيثمي في الزوائد، 1/ 412، رقم: (321)، والبيهقي في شعب الإيمان، 3/ 305، رقم: (3608) وغيرهم.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، 2/ 262، رقم: (509).

(3) رواه مسلم، 4/ 1857، رقم: (1028).

عرى، كساه الله من خضر الجنة»(١).

وعن أنس رضي الله عنه يرفعه: **«أن رجلاً من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار، فيناديه رجل من أهل النار فيقول: يا فلان، هل تعرفني؟ فيقول: لا واللّه ما أعرفك من أنت؟ فيقول: أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني شربة من ماء فسقيتك، قال: قد عرفت، قال فاشفع لي بها عند ربك، قال: فيسأل الله تعالى جل ذكره، فيقول: إني أشرفت على النار فناداني رجل من أهلها، فقال لي: هل تعرفني؟ قلت: لا واللّه ما أعرفك من أنت؟ قال: أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني شربة من ماء فسقيتك، فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه، فيشفعه الله فيأمر به فيخرج من النار»**(٢).

وهكذا كان أصحاب النبي ﷺ والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، يطعمون الطعام، ويقدمونه على كثير من الأعمال، وهم بجانب ما ينالون من أجر وثواب، فإنهم يكسبون قلوب إخوانهم ويتوددون إليهم، والنفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وبذلك تقوى عرى الأخوة، ويزداد الحب في الله تعالى رسوخاً ومتانة.

أيها الصائمون الأكارم:

رمضان موسم القربات، وموسم مسح دموع اليتامى والمنكوبين، موسم العطف على البائسين والمحرومين، فبادر أخي المسلم إلى هذه الطاعة الكريمة، ولتكن سخياً ندياً كريماً، ولتنفق حتى ينفق الله عليك، ولتعط حتى يعطيك الله تعالى، ولتبذل حتى يعوضك الله تعالى، أما علمت أن ملكين يناديان مع إشراقة كل صباح، يقول الأول: اللّهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللّهم أعط ممسكاً تلفاً.

واسمع إلى نداء القرآن، وهو يندبنا إلى الإنفاق والبذل والعطاء قال

---

(1) رواه أحمد 3/ 13، رقم: (11116) والترمذي، 4/ 633، رقم 2449.

(2) الترغيب والترهيب، 2/ 39، وابن ماجه 2/ 1215، رقم: (3685).

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البَقَرَة: 254].

وقال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البَقَرَة: 261].

إنه نداء الحق إلى الذين آمنوا به، وانصاعوا لندائه، وها هو ذا سبحانه وتعالى يدعوهم إلى الإنفاق مما حباهم من نعم وفضل، وهذه الدعوة إلى الإنفاق تعتبر فرصة ثمينة بالنسبة لهم، فإن فاتت، فقد فوتوا الخير كله، لأن الآخرة لا بيع فيها ولا ربح ولا شفاعة.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى معقّباً على هذا المثل القرآني: (إن المعنى الذهبي للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة، أما المشهد الحي الذي يعرضه التعبير، فهو أوسع من هذا وأجمل، وأكثر استجاشة للمشاعر وتأثيراً في الضمائر، إنه مشهد الحياة النامية، مشهد الطبيعة الحية، مشهد الزرعة الواهبة، ثم المشاهد العجيبة في عالم النبات، العود الذي يحمل سبع سنابل، والسنبلة التي تحوي مائة حبة، وفي موكب الحياة النامية الواهبة، يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء، إنه لا يعطي بل يأخذ، وإنه لا ينقص بل يزاد، وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزرع والحصيلة، إن الله يضاعف لمن يشاء، يضاعف بلا عدد ولا حساب، يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده، ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها، والله واسع عليم، واسع لا يضيق عطاؤه، ولا يكف ولا ينضب، عليم يعلم بالنوايا ويثيب عليها، ولا تخفى عليه خافية، ولكن أي إنفاق هذا الذي ينمو ويربو؟

وأي عطاء هذا الذي يضاعفه الله في الدنيا والآخرة لمن يشاء؟

إنه الإنفاق الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها، الإنفاق الذي لا يؤذي كرامة ولا يخدش شعوراً، الإنفاق الذي ينبعث عن أريحية ونقاء ويتجه إلى الله

وحده ابتغاء رضاه)[1].

أخي المسلـــم:

إن هذه الصدقة التي تدفعها في الدنيا، تظلك يوم تكون بأمس الحاجة إلى الظل، يقول الحبيب ﷺ: «**كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس**»، أو قال: «**حتى يحكم بين الناس**»، قال يزيد: فكان أبو الخير لا يخطئه يوم لا يتصدق فيه بشيء ولو كعكة ولو بصلة)[2].

يا سبحان الله، في عَرَصَات القيامة وأهوالها الشداد، حيث تدنو الشمس من رؤوس الخلائق، ويضرب الصراط على متن جهنم، ويأمر الجليل تبارك وتعالى العباد أن يسيروا عليه، في هذه الظروف الحرجة المحرقة، تأتي صدقتك لتكون كالظلة ـ كالغمامة ـ فوق رأسك حتى يفصل بين العباد.

وإياك أخي المسلم أن تتبع صدقتك بالمن والأذى، والسمعة والرياء، فإن ذلك يبطل الصدقة، ويمحق ثوابها ويوردك الموارد المهلكة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البَقَرَة: 264].

لأن المنَّ فيه نزعة لؤم، وشهوة خسيسة، لأن المنان تستهويه رغبة في الاستعلاء والتكبر، أو رغبة في إذلال المسكين المتصدق عليه، أو رغبة في السمعة والرياء، فإنفاقه إذن ليتوجه الناس إليه ويثنوا عليه، لا لوجه الله تعالى.

إن قلب المنان صلد وشعوره صلف، وأحاسيسه لم تذق نداوة الإيمان وبشاشته، إنه قلب قد غلف بالرياء، فمثله كمثل حجر قاس أملس قد غطي بتراب خفيف، يحجب قسوته وصلادته عن أعين الناس، ولكن إذا أصابه المطر فإنه سينكشف للناظرين بقسوته وجموده وصلادته، وإذا به لا يثمر ولا ينبت

(1) في ظلال القرآن، 1/ 306.

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، 8/ 104، رقم: (3310)، وغيره.

زرعاً، وهذا مثل قلب المنان والعياذ بالله تعالى.

ولذلك فإن المتصدق المرائي المنان توعده الحق ﷻ بعذاب أليم، كما جاء على لسان النبي ﷺ، فيما يرويه أبو ذر رضي الله عنه «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**»، قال فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: «**المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»[1].

أخي المسلم:

إنه مما يدمي القلب ويكلم الفؤاد أنك إن قلت للموسر: أنفق في هذه الأيام المباركة، فإن للمحتاجين حاجات وضروريات، وكم في المسلمين مَن طالتهم حروب ظالمة فتاكة، فهُجّروا من ديارهم، وهُدّمت منازلهم، واغتُصِبَت نساؤهم ويُتّم أبناؤهم، جروحهم نازفة، قلوبهم ممزقة دامية، قلَّ الطعام والشراب، ونقص الكساء والدواء، ونحن أكرمنا الله تعالى بأمن وآمان، وطمأنينة ورخاء ومال، فمد يد العون لهم، واجبر كسر قلوبهم، وامسح دموع صغارهم، وأدخل البهجة والفرحة على قلوبهم...

فإنه يجيبك مع كل أسف، كما حكى عنه وعن أمثاله القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: 47].

وفي المقابل فإنك تجد بحمد الله تعالى أناساً خيرين مباركين، لا يستنكفون عن المسارعة الحثيثة لمواساة الفقراء والغارمين، فتراهم يتكفلون بإفطار مجموعات كبيرة من الناس، وكسوة عدد ليس بالقليل من المحتاجين، حباً لله تعالى، ورغبة فيما عنده من الثواب والأجر العظيم.

ثم احذر أخي المسلم أن تقول:

إن الصدقة لا تصل إلى مستحقيها، وأنا أدفع ولكن ما يدريني أنها

(1) رواه مسلم، 1/ 102، رقم: (106).

وصلت إلى أرض فلسطين أم لا، وأنا أبذل ولا أدري هل وصلت إلى المكان الفلاني أم لا، وأنت تعلم أن الأعمال الخيرية يقوم عليها أناس يوصلون ما تقدم، ثم أما سمعت بحديث المتصدق على فئات غريبة يقول ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ»[1].

واعلم أخي الصائـــم:

أن في الإنفاق دعوة قوية للتكافل الاجتماعي الذي ينشده الإسلام، فكما أن معالم هذا التكافل قد برزت وأثمرت في كثير من شرائع الإسلام، كالصلاة والحج والصوم والزكاة، فكذلك تتجلى هنا وبنطاقها الواسع، ذلك لأن المسلمين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد، وكالبناء الواحد، فكلما بذل المسلم وأعطى أخاه وأقَالَ كربته، قويت الرابطة الإيمانية، وارتأب الصدع، وسدت الثغور، ولم يعد هناك أي منفذ لعوامل التفرقة والهدم والشتات...

والصدقة لم تقتصر يوماً من الأيام على الفقراء والمحتاجين، بل إنها تعدتهم إلى سبل الخير ونشر الهدى والنور، فالدعوة الإسلامية بأمس الحاجة للمحسنين، ذلك لأن العالم شرقه وغربه متعطِّش لتعاليم الإسلام، فإما أنه لم يسمع عن الإسلام شيئاً، أو إن الإسلام وصله بصورة مشوهة مرعبة، كما يصورها له الإعلام في تلك البلاد، فمن يصحح هذه الصورة؟ ومن يستأنف النشاط الدعوي الذي أوجبه الحق تبارك وتعالى علينا، ولم يكن من نافلة الحياة بل هو من أولوياتها،

(1) رواه البخاري، 2/ 516، رقم: (1355).

ولذلك فإن من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ويعتبر طلبة العلم والدعاة من أهم ما ينبغي أن يجهز ويرسل إلى تلك البلدان، ليجتمع مع أهلها ويحاورهم ويحاضرهم ويبدد الغبش الذي رسا على قلوبهم وعقولهم عن تعاليم الإسلام، ويصحِّح لهم مفاهيمهم وتصوراتهم الخاطئة حول شرع محمد ويبين لهم أن الانطباعات السلبية التي علقت في أذهانهم حول الدين، الإسلام براء منها، والحق فيها كذا وكذا...

وللأسف فإن هذا الباب من التبرع يكاد يكون أضعف شيء في هذا الزمان، بعدما كان من أنشط الأبواب في عصور الازدهار في الدولة الإسلامية، ولو تنبه المسلمون إليه وأسهموا فيه لكان وضع الأمة أحسن من واقعها الحالي بكثير...

بالله عليكم يا مسلمون:

كم يُرصد كل عام للإرساليات التبشيرية الصليبية في أفريقيا وآسيا وغيرهما؟

وكم يكدَّس من الملايين سنوياً للصد عن سبيل الله، سواء كان على المستوى التبشيري، أم على مستوى الدعوة المضادة لهذا الدين، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: 36].

إنها مسؤولية كبيرة يتحمل تبعتها كل مسلم، وخاصة أصحاب الأموال، ولا يظن هؤلاء أن الله تعالى لن يسألهم عنها يوم الدين...

أيها الصائمون الأكارم:

إن الصدقة تطفئ غضب الرب تبارك وتعالى، واذكر يا أخي أن الصدقة الجارية تكون نوراً مضيئاً في قبرك، ولربما من تصدقت عليه يدعو لك آناء الليل وأطراف النهار، وابنك من لحمك ودمك الذي يرثك لربما لا يذكرك ولو بدعوة، بعدما يأخذ نصيبه من التركة...

فبادر أخي الصائم في هذه الأيام المباركة بالجود والعطاء، فلن تجد أوقاتاً

يضاعف الأجر فيها كهذه الأيام، التي تفتح فيها أبواب الجنة، وتغلق فيها أبواب النار.